فصل[1]

ثُمَّ تأمَّل إذا نصبتَ خيمةً أو فُسطاطًا كيف تُمِدُّه[2] من كلِّ جانبٍ بالأطنابِ ليثبُتَ فلا يسقُط ولا يتعوَّج.

فهكذا تجدُ النَّبات والشجرَ له عروقٌ ممتدَّةٌ في الأرض منتشرةٌ إلىٰ كلِّ جانبٍ لتُمسِكه وتُقِيمَه، وكلَّما ٱنتشرت أعاليه ٱمتدَّت[3] عروقُه وأطنابُه من أسفل في الجهات. ولولا ذلك كيف كانت تثبُت هذه النَّخيلُ الطِّوالُ الباسقاتُ والدَّوْحُ العِظام[4] علىٰ الرياح العواصف؟!

وتأمَّل سَبْق الخِلْقة الإلهية[5] للصِّناعة البشرية؛ حتىٰ يَعْلَم الناسُ نَصْبَ الخِيام والفساطيط من خِلْقة الشَّجر والنَّبات؛ لأنَّ عروقها أطنابٌ لها كأطناب الخيمة، وأغصانُ الشَّجر يُتَّخذُ منها الفساطيط، ثمَّ يحاكىٰ بها الشجرة.

فصل[6]

ثمَّ تأمَّل الحكمةَ في خَلْق الوَرَق؛ فإنك ترىٰ في الورقة الواحدة من جملة العُروق الممتدَّة فيها المبثوثة فيها ما يَبْهَرُ النَّاظر.

---

(١) «الدلائل والاعتبار» (٢١).

(٢) (ت): « فسطاط كيف يمد».

(٣) (ت): «اشتدت».

(٤) الدَّوْح: الشجر العِظام ذات الفروع الممتدة. «التاج» (دوح).

(٥) (د، ت): «الخلق الإلهي».

(٦) «الدلائل والاعتبار» (٢١)، «توحيد المفضل» (١٠١ – ١٠٢).

فمنها غِلاظٌ ممتدَّةٌ في الطُّول والعرض، ومنها دِقاقٌ تتخلَّلُ تلك الغِلاظ، منسوجةً نسجًا دقيقًا مُعْجِبًا لو كان مما يتولىٰ البشرُ صُنْعَ مثله بأيديهم لما فُرِغ من ورقةٍ في عامٍ كامل، ولاحتاجُوا فيه إلىٰ آلاتٍ وحركاتٍ وعلاجٍ تعجزُ قدرتهم عن تحصيله، فبثَّ الخلَّاقُ العليمُ في أيامٍ قلائل من ذلك ما يملأ الأرض سَهْلَها وجبالها بلا آلاتٍ ولا مُعينٍ ولا فكرةٍ ولا معالجة، إن هي إلا إرادتُه النَّافذةُ في كلِّ شيء، وقدرتُه التي لا يمتنعُ منها شيء؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فتأمَّل الحكمةَ في تلك العروق المتخلِّلة للورقة[١] بأسْرِها لتسقيها وتُوصِل[٢] إليها المادَّة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها، بمنزلة العروق المبثوثة في الأبدان التي تُوصِلُ الغذاءَ إلىٰ كلِّ جزءٍ منه.

وتأمَّل ما في العروق الغِلاظ من إمساكها الورقَ بصلابتها ومتانتها لئلَّا تتمزَّق وتضمحلَّ[٣]، فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان، فتراها قد أُحكِمَت صَنْعَتُها ومُدَّت العروقُ في طولها وعرضِها لتتماسك فلا يَعْرِضُ لها التَّمزُّق.

فصل

ثمَّ تأمَّل حكمةَ اللطيف الخبير في كونها[٤] جُعِلَت زينةً للشجر، وسِتْرًا ولباسًا للثَّمرة، ووقايةً لها من الآفات التي تمنعُ كمالها؛ ولهذا إذا جُرِّدَت

(١) (د، ق): «الورقة». (ت): «المورقة».

(٢) (ح، ن): «ويرسل».

(٣) (ر، ض): «تنتهك وتتمزق».

(٤) أي: الوَرَق.

الشجرةُ من ورقها فَسَدَت الثَّمرةُ ولم يُنتفَع بها.

وانظر كيف جُعِلَت وقايةً لِـمَنبِت الثَّمرة الضعيف[1] من اليُـبْس، فإذا ذهبَت الثَّمرةُ بقي الورقُ وقايةً لتلك الأفنان الضعيفة من الحرِّ، حتىٰ إذا طَفِئت تلك الجمرةُ ولم يَضُرَّ الأفنانَ عُرْيُـها عن ورقها سُلِبَتها[2] لتكتسيَ لباسًا جديدًا أحسنَ منه.

فتبارك الله ربُّ العالمين الذي يعلمُ مَساقِط[3] تلك الأوراق ومَنابِتَها، فلا تخرجُ منها ورقةٌ إلا بإذنه ولا تسقطُ إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدها العبادُ علىٰ كثرتها وتنوُّعها وهي تسبِّحُ بحمد ربها[4] مع الثِّمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا آخر، ولرأوا خِلْقَتها بعَيْنٍ أخرىٰ، ولعلموا أنها لشأنٍ عظيمٍ خُلِقَت[5]، وأنها لم تُخْلَق سُدىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]؛ فالنَّجمُ ما ليس له ساقٌ من النَّبات، والشجرُ ما له ساقٌ[6]، وكلُّها ساجدةٌ لله مسبِّحةٌ بحمده: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) (ن، ح): «الضعيفة».

(٢) (ن، ح): «سلبها».

(٣) (ت، ح، ن): «ساقط».

(٤) (ت): «بحمد ربها وتقدسه».

(٥) كتب فوقها في (د) بخطٍّ دقيق: «أي: للاعتبار».

(٦) رُوِي هذا عن ابن عباس، واختاره الطبري (٢٣/ ١٢).

ولعلَّك أن تكون ممَّن غَلُظ حِجابُه، فتذهبَ[1] إلىٰ أنَّ التَّسبيحَ دلالتُها علىٰ صانعها فقط[2]؛ فاعلَم أنَّ هذا القول يظهرُ بطلانُه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضعٍ آخر[3].

وفي أيِّ لغةٍ تسمَّىٰ الدلالةُ علىٰ الصَّانع تسبيحًا وسجودًا وصلاةً وتأويبًا وهُبوطًا من خشيته، كما ذكر تعالىٰ ذلك في كتابه؟!

فتارةً يخبرُ عنها بالتَّسبيح، وتارةً بالسُّجود، وتارةً بالصَّلاة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، أفترىٰ يقبلُ عقلُك أن يكون معنىٰ الآية: كلٌّ قد عَلِمَ اللهُ دلالته عليه؟! وسمَّىٰ تلك الدَّلالةَ صلاةً وتسبيحًا، وفرَّق بينهما وعَطَف أحدَهما علىٰ الآخر!

وتارةً يخبرُ عنها بالتَّأويب؛ كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

---

(١) (ح، ن): «فذهبت».

(٢) كما ذهب إليه المتكلمون، الباقلاني، والرازي، والقفال الشاشي، وابن رشد، والزمخشري، وغيرهم. انظر: «مفاتيح الغيب» (١/ ٢٧، ٤/ ١٤٤، ٢٠/ ٣٤٨، ٢٩/ ٤٤٨)، و«مناهج الأدلة» (١٥٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٤٣٠)، و«الكشاف» (٢/ ٦٢٦)، و«المعيار المعرب» (١٢/ ٣٤٥).

(٣) انظر بعضها في «الروح» (٢٦٤).
وانظر: «مسائل حرب» (٤٢٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٤٢، ٤١٩، ٥/ ١٢١)، و«تفسير السمعاني» (٣/ ٢٤٤، ٤٢٨، ٥/ ٢٤٥، ٣٦٤)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٩٤، ٩٥)، و«رسالة في قنوت الأشياء كلها لله» (١/ ٤٣ - جامع الرسائل)، و«قاعدة في المحبة» (٢٣)، وله في المسألة قاعدةٌ مفردة ذكرها ابن رشيِّق. انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (٣٠٤).

وتارةً يخبرُ عنها بالتَّسبيح الخاصِّ بوقتٍ دون وقت، كالعشيِّ والإشراق، أفترىٰ دلالتها علىٰ صانعها إنما تكونُ في هذين الوقتين؟!

وبالجملة؛ فبطلانُ هذا القول أظهرُ لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا علىٰ بطلانه، والحمدُ لله.

فصل[1]

ثمَّ تأمَّل حكمتَه سبحانه في إيداع[2] العَجَم والنَّوىٰ في جوف الثَّمرة، وما في ذلك من الحِكَم والفوائد التي منها: أنه كالعَظْم لبدن الحيوان، فهو يُمْسِكُ بصلابته رخاوةَ الثَّمرة ورِقَّتَها ولطافتَها، ولولا ذلك لشُدِخَت[3] وتفسَّخَت، ولأسرع إليها الفساد، فهو بمنزلة العَظْم، والثَّمرةُ بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عزَّ وجلَّ العِظام.

ومنها: أنَّ في ذلك بقاءَ المادَّة وحِفْظها؛ إذ ربَّما تعطَّلت الشجرةُ أو نوعُها، فخَلَق فيها[4] ما يقومُ مقامها عند تعطُّلها، وهو النَّوىٰ الذي يُغْرَسُ فيعودُ مثلَها.

ومنها: ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات، وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والأصباغ وضروبٍ أُخَر من المصالح التي يتعلَّمها النَّاس[5]، وما خَفِيَ عليهم منها أكثر.

---

(١) «الدلائل والاعتبار» (٢١)، «توحيد المفضل» (١٠٢ - ١٠٣).

(٢) (ح، ق، د): «إبداع» بالموحَّدة. والعَجَم هو النوىٰ.

(٣) (ر، ض): «لتشدخت».

(٤) (ح): «فخلف فيها».

(٥) (ق): «يعلمها الناس».

فتأمَّل الحكمةَ في إخراجه ـ سبحانه ـ هذه الحبوبَ لمنافعَ فيها، وكسوتها لحمًا لذيذًا شهيًّا يتفكَّهُ به ٱبنُ آدم.

ثمَّ تأمَّل هذه الحكمةَ البديعةَ في أنْ جَعَل للثَّمرة الرَّقيقة اللطيفة التي يُفسِدُها الهواءُ والشمسُ غلافًا يحفظُها، وغشاءً يواريها؛ كالرُّمَّان والجَوز واللَّوز ونحوه. وأمَّا ما لا يَفْسُدُ إذا كان بارزًا فجَعَل له في أوَّل خروجه غشاءً يواريه؛ لضعفه ولقلَّة صبره علىٰ الحرِّ، فإذا ٱشتدَّ وقَوِيَ تفتَّق عنه ذلك الغشاءُ وضَحَا للشمس[1] والهواء؛ كطَلْع النَّخل وغيره.

فصل[2]

ثمَّ تأمَّل خلقَ الرُّمَّان وماذا فيه من الحِكَم والعجائب؛ فإنك ترىٰ داخلَ الرُّمَّانة كأمثال التِّلال[3] شحمًا متراكمًا في نواحيها، وترىٰ ذلك الحَبَّ فيها مرصوفًا رصفًا ومنضودًا نضدًا لا يمكنُ الأيدي أن تنضِّده، وترىٰ الحَبَّ مقسومًا أقسامًا وفِرَقًا، وكلَّ قسمٍ وفرقةٍ منه ملفوفًا[4] بلفائفَ وحُجُبٍ منسوجةٍ أعجبَ نسجٍ وألطفَه وأدقَّه[5] علىٰ غير منوالٍ إلا منوال ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، ثمَّ ترىٰ الوعاءَ المحكَم الصُّلبَ قد ٱشتمل علىٰ ذلك كلِّه وضمَّه أحسنَ ضمٍّ.

---

(١) أي: بَرَز لها، وأصابه حرُّها.

(٢) «الدلائل والاعتبار» (٢٢)، «توحيد المفضل» (١٠٣ - ١٠٤).

(٣) في الأصول: «القلال»، تحريف. والمثبت من (ر، ض). وإنما ذُكِرت القِلالُ في الحديث في مثَل ثمار الجنة لعِظَمها، وليست كذلك ثمار الدنيا. ثم إن المقصود ههنا تمثيل تراكمها لا عِظَمها.

(٤) (ح): «ملفوفة». (ن): «ملفوف».

(٥) «وأدقه» ليست في (ح).

فتأمَّل هذه الحكمةَ البديعةَ في الشَّحم المودَع فيها؛ فإنَّ الحَبَّ لا يمدُّ بعضه بعضًا، إذ لو مدَّ بعضُه بعضًا لاختلط وصار حبَّةً واحدة، فجُعِل ذلك الشحمُ خِلاله[1] ليمدَّه بالغذاء.

والدليلُ عليه أنك ترىٰ أصول الحَبِّ مركوزةً في ذلك الشَّحم، وهذا بخلاف حَبِّ العنب فإنه ٱستغنىٰ عن ذلك بأن جَعَل لكلِّ حبَّةٍ مجرًى تشربُ منه، فلا تشربُ حقَّ أختها، بل يجري الغذاءُ في ذلك العِرْق مجرًى واحدًا، ثمَّ ينقسمُ منه في مجاري الحبوب كلِّها، فينصبُّ منه[2] في كلِّ مجرًى غذاءُ تلك الحبَّة، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

ثمَّ إنه لَفَّ ذلك الحَبَّ في تلك الرُّمَّانة بتلك اللفائف؛ لتضُمَّه وتمسكه فلا يضطرب ولا يتبدَّد، ثمَّ غشَّىٰ فوق ذلك بالغشاء الصُّلب[3]، صِوانًا له[4] وحافظًا[5] وممسكًا له بإذن الله وقدرته.

فهذا قليلٌ من كثيرٍ من حكمة هذه الثَّمرة الواحدة، ولا يمكنُنا ـ ولا غيرَنا ـ ٱستقصاءُ ذلك، ولو طالت الأيامُ واتَّسعَ الفِكْر[6]، ولكنَّ هذا منبِّهٌ علىٰ ما وراءه، واللبيبُ يكتفي ببعض ذلك، وأما من غَلبت عليه الشقاوة، فكأيِّن من آيةٍ في السَّموات والأرض يمرُّ عليها وهو معرضٌ عنها[7]، غافلٌ

---

(١) (ح): «غلافه». وسقطت من (ن).

(٢) (ح): «فينبعث منه».

(٣) (ر، ض): «بالقشرة المستحصفة».

(٤) (ت): «صنوانا». (ن، ح): «صونا».

(٥) (ق، ن): «وحفظا». (ح): «وحفاظا». (ض): «لتصونه وتحصنه».

(٦) (ت): «الذكر».

(٧) سها ناسخ (ق) فكتب بدل هذه الجملة آية سورة يوسف: ١٠٥، التي اقتبس منها =

عن موضع الدَّلالة فيها.

فصل[1]

ثمَّ تأمَّل هذا الرَّيعَ[2] والنَّماء الذي وضعه الله في الزَّرع، حتىٰ صارت الحبَّةُ الواحدةُ ربما أنبتت سبعَ مئة حبَّة[3]، ولم تنبت الحبَّةُ حبَّةً واحدةً مثلها؛ ليكون في الغَلَّة متَّسعٌ لما يُرَدُّ في الأرض من الحَبِّ وما يكفي النَّاس ويَقُوتُ الزَّارعَ إلىٰ إدراك زرعه. فصار الزرعُ يَرِيعُ هذا الرَّيعَ ليفيَ بما يحتاجُ إليه للقوت والزِّراعة.

وكذلك ثمارُ الأشجار والنَّخيل، وكذلك ما يخرجُ مع الأصل الواحد منها من الصِّنوان؛ ليكون لما يقطعُه النَّاسُ[4] من ذلك ويستعملونه في مآربهم خَلَفًا، فلا تَبطُل المادَّةُ عليهم ولا تَنقُص.

ولو أنَّ صاحبَ بلدٍ من البلاد أراد عِمارتَه لأعطىٰ أهلَه ما يَبْذُرونه فيه[5] وما يُقِيتهُم إلىٰ ٱستواء الزَّرع، فاقتضت حكمةُ اللطيف الخبير أن أخرجَ من الحبَّة الواحدة حبَّاتٍ عديدة؛ ليُقِيتَ الخارجُ النَّاسَ ويدَّخرون منه ما يزرعون.

= المصنفُ عبارته، ثم عاد فصحَّحها في الطرَّة بما يوافق باقي النسخ.

(١) «الدلائل والاعتبار» (١٩)، «توحيد المفضل» (٩٩ – ١٠٠).

(٢) وهو النماء والزيادة. «اللسان» (ريع).

(٣) (ر، ض): «مئة حبة وأكثر وأقل». وهو أجود.

(٤) (ت، د): «افلس»، وفي طرة (د): «لعله: الناس». وكذلك هي في (ر، ض).

(٥) (ق، د، ت): «فيهم».